١

الفصل الأول

التطور التاريخي لعصر النهضة بأوربا

« إيطاليا ، فرنسا »

- مقدمة عن النهضة الأوربية .
- عصر النهضة في إيطاليا بالقرنين الخامس عشر والسادس عشر .
- عصر النهضة في فرنسا بالقرن السادس عشر .

مقدمة عن النهضة الأوربية :

بدأت أوربا فى أواخر القرون الوسطى تدخل فى طور نهوض عظيم كانت نتيجته تأسيس الدولة الأوربية الحديثة التى تختلف فى نظامها عن القرون الوسطى فى شتى الأحوال الاجتماعية والسياسية والصناعية والتجارية (عمرو سليم – ١٩٢٣-٢) ، وأعتبر المؤرخون عام ١٤٥٣ عام سقوط القسطنطينية ، وعام نهاية حرب السنين المائة (*) ، حداً فاصلاً بين القرون الوسطى والعصر الحديث ، على أن هذا النهوض لم يحدث فجأة وإنما كانت له مقدمات طويلة ترجع إلى القرن الحادى عشر (رمسيس يونان – د.ت – ٢٦٣) .

وقد أطلق المؤرخون على تلك الفترة عصر النهضة الأوربية ولكنهم اختلفوا فى تحديد بداية النهضة ، ولكن مما هو معروف أن النهضة قد تدرجت فى النهوض من القرنيين الرابع عشر والخامس عشر ووصلت إلى قمة ازدهارها بالقرن السادس (وليام لانجر – ١٩٦٣ – ٧٩٤ ، ١٥٠٣) (جواهر لال نهرو – ١٩٥٧ – ٥٥) (جون .أ. هامرتن .د.ت –٦٨١) (عمرو سليم – ١٩٢٣-٢) (أحمد فهمى الحكيم – ١٩٢٨-٧) .

ولاغرو أن تكون إيطاليا صاحبة القدح المعلى واليد الطولى فى النهضة الأوربية ولاسيما إحياء الآداب والفنون الجميلة . فهى التى قامت بأعبائها الأولى ، فقد كانت أحوالها الطبيعية والاجتماعية والسياسية وغيرها مساعداً على نمو عوامل النهضة وتقدمها تقدماً سريعاً يفوق كل تقدم فى أى جهة أخرى من أوربا (عمرو سليم – ١٩٢٣ – ٩ ، ١٠) (أحمد فهمى الحكيم – ١٩٢٨ – ٧) .

وما أن وصلت النهضة بها إلى حد الكمال والنضوج حتى أخذت تنتشر منها إلى جهات أوربا المختلفة شيئاً فشيئاً ، حتى عمت غربى أوربا بأشكال مختلفة باختلاف مزاج كل شعب من الشعوب (عبدالرحيم عبدالرحمن – ١٩٧٧ – ٢٥) .

وقد كانت فرنسا من أهم البلاد الأوربية التى ظهرت بها آثار النهضة الإيطالية بصورة واضحة فى القرن السادس عشر (ليليان . ج. براجدون – ١٩٦٢

(*) حرب السنين المائة : حرب قامت بين انجلترا وفرنسا واستمرت لمدة مائة عام (وليام لانجر ١٩٦٣ – ١٠٦١) بالقرن الرابع عشر .

- ٦٣) (عمرو سليم -١٩٣٢-١٩) .

ويعتبر عصر النهضة بإيطاليا هو الذى مهد الطريق لبزوغ عصر الباروك ، وقد انتشر من إيطاليا إلى دول أوربا الغربية ، واتخذ الباروك مظاهراً شتى باختلاف الدول والبلدان والأنظمة السياسية ، وتألق فى فرنسا فى عهد «لويس» الرابع عشر نتيجة لتحالفه مع الحكم المطلق ، متخذاً بذلك مظهراً كلاسيكياً ، الباروك الكلاسيكى الذى نشأت جذوره أساساً من التقاليد التى كانت منتشرة بفرنسا فى القرن السادس عشر .

ونتيجة للتسلسل التاريخى للطراز الباروكى يتم تقسيم الدراسة على النحو التالى :

أولاً : عصر النهضة فى إيطاليا بالقرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ثانياً : عصر النهضة فى فرنسا بالقرن السادس عشر .

أولاً : عصر النهضة في إيطاليا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر :

تعد إيطاليا المهد الأول للنهضة فى أوربا حيث أن آثار مجدها القديم وعظم حظها من النصر الباهر وسيادتها على العالم أيام سطوة الدولة الرومانية لم تذهب كلها دفعة واحدة .

فبالرغم من الاضمحلال الذى تم على الحضارة الإيطالية نتيجة لغزو بربر الشمال لإيطاليا إلا أن الشعب الإيطالى يشعر بأنه الوارث الحقيقى لعظمة الرومان ، وقد عزز هذا الشعور فيهم اشتمال إيطاليا على مقر البابوية صاحبة النفوذ الأعظم بأوربا فى القرن الوسطى (عمرو سليم - ١٩٢٨-١٠) ، فاتجه الإيطاليون إلى إحياء الحضارة اليونانية الرومانية القديمة ذات الكنوز الدفينة فى العلوم الإنسانية والعلوم العلمية والقوانين والنظم السياسية ودراسة الفنون والآداب (فرانسيس دينوار - ١٩٦٣-١١) (محمد عزت مصطفى - د.ت -١٥) ، وساعد على ذلك أن اللغة الإيطالية قريبة جداً من اللغة اللاتينية فسهل عليهم تعلمها ، وبذلك استطاعوا الاستفادة من حضارة أجدادهم (عبدالرحمن عبدالرحيم - ١٩٧٧ -٢٨) .

ومن العوامل الأخرى التى ساعدت على جعل إيطاليا تدخل فى ميدان

النهضة موقعها الجغرافى (*)، فوقوع إيطاليا فى مركز متوسط على ساحل البحر المتوسط فى عصر كان فيه هذا البحر مركز تجارة العالم ، أكسبها أهمية لاتقدر ، وقد أصبحت حلقة الاتصال بين أوربا وبلاد شرق البحر المتوسط والمشرق الأقصى، فاتسعت تجارتها ونمت صناعتها فكثر ثراء مدنها كالبندقية وجنوه وفلورنسا وميلان ، والثراء يولد الرغبة فى الحرية ويكسب القوة والاعتزاز بالنفس ، ويمهد السبيل للاشتغال بدراسة الفنون والعلوم والآداب ، كما كانت إيطاليا بفضل موقعها قريبة من أقاليم الدولة البيزنطية ، فسهل على طلاب العلم من الإيطاليين أن ينزحوا إلى جهات هذه الدولة ليحصلوا علوم الإغريق الأقدمين ، كما سهل على علماء الدولة البيزنطية أن يفدوا إلى المدن الإيطالية ، كأساتذة زائرين وينشروا العلم فيها ويكونوا شبه مدارس علمية فى هذه المدن (عبدالرحمن عبدالرحيم – ١٩٧٧ – ٢٦ ، ٢٧) (هـ. ج. ويلز – ١٩٨٥–٢٤١) .

ومن الناحية السياسية كانت إيطاليا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر مؤلفة من خمس دول عظمى ، البندقية وكانت أقواها جميعاً تحصل على ثروتها ونفوذها عن تجار الشرق الغزيرة ، ميلان كانت تسيطر على وادى البو الغنى ، فلورنسا وكانت بإمارة أسرة آل مدتشى وكانت لمدة طويلة تشمل على أرقى المنتجات الإيطالية المتقدمة ، الولايات البابوية فكانت موزعة فى الجزء الأوسط من شبه الجزيرة وتتضمن روما وكان يحكمها البابوات المشتغلين بالسياسة، ومملكة نابلى (وليام لانجر – ١٩٦٣–١٠٥٤) وقد كانت هذه المدن الإيطالية مهيأة بطبيعة موقعها ومركزها وسياسة الحكم بها ، أن يكون لها السبق فى استقبال العلوم والفنون وأن تصبح مراكز للنهضة (عبدالرحمن عبدالرحيم – ١٩٩٧–٢٩) وقد أجمع المؤرخون على أن مراكز النهضة بدأت بفلورنسا ، ثم ازدهرت فى روما وأخيراً أوت شعلة العصر الباهرة إلى فينيسيا واستقرت بها (بدر الدين أبوغازى – د.ت– ٣٠٣) .

وتعتبر فلورنسا رائدة المدن الإيطالية حيث إنها منبع الثقافة التى تألفت فى

(*) موقع إيطاليا الجغرافي : تقع إيطاليا جنوبي أوربا – وهي تطل علي البحر المتوسط وتمتد فيه جنوباً علي هيئة حذاء تحد من الشمال بجبال الألب الشاهقة ، ومن الشرق ببحر الادرياتيك ومن الغرب بالبحر التيراني . ولاتقتصر إيطاليا علي شبه الجزيرة ، ولكنها تشتمل كذلك علي عدة جزر أكبرها جزيرة صقلية وسردينا ، ويليها عدة جزر صغيرة (حسن محمد جوهر وصالح زكي – ١٩٦٦ – ٥٤ ، ٥٥) خريطة رقم (١) .

أوربا وبزغ منها العباقرة مثل دانتى Dante وجيتوا Giotto وبيترارك Petrark هذا بجانب الثراء التجارى لأهلها نتيجة لموقعها الجغرافى أدى إلى اشتغال أهل فلورنسا بالتجارة ، وتمركز شركات الصرافة الضخمة بها التى ازدهرت فى القرن الرابع عشر أدى إلى تعامل كل أوربا معها . وفى ظل هذا التقدم التجارى نشأت نقابة لحماية مصالح التجار (وليام لانجر ١٩٦٣ - ٧٩٤) (هـ.ج ويلز ١٩٥٨- ٢٤٢) .

وقد شكلت صناعة النسيج جانب حيوى هام من اقتصاد فلورنسا ، فبالرغم من أن الصوف لم يكن ينتج فى مدن إيطاليا ، بل يستورد من إنجلترا وغيرها من البلدان ، إلا أن الحرفيين فى فلورنسا قد عرفوا أسرار إنتاجه وتفوقوا فى أساليب الإنتاج وتحسين جودته ، فبرعوا فى أساليب الصباغة ووسائل التنظيف وإعطاءه انهاءات ومظهر متميز ، وفى ظل هذا التقدم ظهرت النقابات الحرفية وتعددت أنواعها ، فمنها المختص بالصباغة والتجهيز النهائى للمنسوجات الفاخرة وتعد من أهم النقابات والأقل أهمية هى تلك التى تمد المصنعين بالصوف الخام ، ومن النقابات الأخرى من يقوم بعمليات نسج الحرير وإنتاجه فى صورة المختلفة من البروكار (Kemper-1979-68) .

وتطورت الحياة الاقتصادية الإيطالية ووصلت إلى المرحلة التى تميزت بظهور التجار الذين عملوا على نطاق واسع بها بإقامة تجارة البندقية وجينوا الكبرى مع شرقى البحر المتوسط وركزوا فى ميلان تجارة وادى نهر البو ، وجعلوا فلورنسا المركز الصناعى فى عالم البحر المتوسط وطليعة مراكز النسيج فى العالم . وأعقب هذه الحركة الاقتصادية المزدهرة اتحاد الرأسماليين على هيئة مصارف وشركات للتجارة وقد أصبحت من أقوى النقابات الحرفية وتركزت فيها الثروة بشكل واضح ، وأصبحت البيئة الإيطالية تضم رجال أغنياء وأصحاب مصارف يسيطرون على مواطنيهم ، ثم أن الحكام بما أقاموه من أجهزة حكومية أكثر عملية فى مكان الأشكال البالية القديمة وقد أحدثوا وساعدوا على إحداث ثورة ذهنية عرفت باسم الحركة الإنسانية Humanism (فردينا ، سيكفل وآخرين - ١٩٦١ - ٧٩) .

وقد سميت كذلك لأنها تركزت على دراسة الآداب والعلوم الإنسانية والفنون اليونانية الرومانية ، واستهدفت الكشف عما فى الفكر الوثنى من ثراء ، ووجهت الاهتمام إلى دراسة الفلسفة بصفة عامة ودراسة الإنسان ، جسمه وعقله

وحواسه بصفة خاصة (أبوصالح الألفى – د.ت – ١٧٤) (محمد عزت مصطفى – د.ت– ١٤) (برنارد مايرز – ١٩٥٨– ٣١٦) (عفيفى البهنسى– ١٩٨٢–١٦) .

وقد ظهرت هذه الحركة وتركزت فى نطاق الطبقات العليا فى المدينة ، تلك التى يتبعها الأمراء ورجال البلاط وكبار التجار والمثقفون والفنانون الذين عرفوا بالإنسانيين – هذه المجموعات الأربع – مواليد جديدة جاءت نتيجة ثورة مرت وعراقيل العصور الوسطى وفتحت الطريق أمام نبوغ الفرد ، أما بالنسبة للعناصر الدنيا من سكان المدينة ، ولأفواج الغالبية من الفلاحين والكادحين ، فإن الأمر لم يتغير إلا قليلاً وقد اختفت بإضعاف الإقطاع بعض خصائص الرق السيئة ، ولكنهم ظلوا يعيشون فى نفس الظروف الصعبة التى عاشوها من قبل (فرديناند سكيفل وآخرين ١٩٦١–٨٦ ، ٨٧) .

لذا يمكن القول أن حضارة عصر النهضة لم تكن حضارة صناع أو أصحاب حوانيت صغيرة ، ولم تكن حضارة طبقة وسطى ميسورة الحال ، نصف متعلمة ، وإنما كانت ملكاً تستحوذ عليه وتحرص على الإنفرادية ، صفوه مستنيرة ذات ثقافة لاتينية . وتتألف هذه الصفوة أساساً من تلك الطبقات الاجتماعية التى كانت ترتبط بالحركة الإنسانية . أى إنها كانت طبقة من المثقفين تتميز بالتجانس وتشابه العقلية (ارنولد هاوزر – د.ت – ٣٥٠) .

لذا فقد سجلت فلورنسا أروع الانتصارات الفنية والفكرية بفضل أسرة آل مدتشى "Medici" ، حيث كان أنصار هذه الحركة من آل مدتشى وغيرهم يبعثون بالرسل للبحث عن المخطوطات فى اليونان وغيرها ، وفى طلب أولئك المترجمين الذين كانوا يقومون على ترجمتها إلى الإيطالية منذ القرن الخامس عشر ، ونشرت حركة الترجمة شيئاً من تلك الحرية التى كان ينعم بها الإغريق فى بحث مشاكلهم.

وقد كان من أعظم زعماء هذه الأسرة «كوزيمو» الفخم "Cosimo"(١٤٣٤–١٤٦٤) «ولورنزو» العظيم (١٤٦٩–١٤٩٢) . حيث ظهرت فى حكمهما نهضة شاملة فى العلم والفن لم تر المدينة مثلها فى أى حقبة من تاريخها ، تلك النهضة التى استهدفت نشر بدائع الفنون والآداب اليونانية الرومانية وركزت على دراسة العلوم المتصلة بالإنسان (محمد عزت مصطفى – د.ت – ١٤ ، ٣٥) (وليام لانجر – ١٩٦٣–٧٩٩) وقد دأب الرجلان على شراء

المخطوطات اليونانية والعربية ، وعلى تمويل أعمال الكشف عن الآثار التاريخية ، وكانا يبعثان بالرسل إلى اليونان ودمشق وإنطاكية والقاهرة للبحث عن نفائس المخطوطات واقتنائها بأى ثمن ، أو بنسخها لهما النساخ الذين بلغ عددهم فى عهدهما بالمئات ، وبالإضافة إلى ذلك كانا يحسنان استقبال العلماء والفنانين والأدباء الوافدين على مدينتهم من القسطنطينية والأندلس ، وقاما بإنشاء المكتبات والمتاحف والمجامع العلمية ، فأنشأ كوزيمو مجمعاً لدراسة آثار «فلاطون» ، كما عملا على تشجيع أرباب الفن على الإنتاج ، فغدت فلورنسا فى عهدهم قبلة أنظار العالم وأغنى مدنه ، وبلغ من ثرائها أن بعض مصارفها كان بقرض الأموال لبعض دول العالم ، وبهذا تحقق حلم أبناء المدينة فأصبحت فلورنسا أثينا الجديدة (عفيف البهنسى – ١٩٨٢–٣٦) (محمد عزت مصطفى – د.ت – ٣٥ ، ٣٦) (نعمت إسماعيل – ١٩٨٢–٨٥) (وليام لانجر – ١٩٦٣–٧٧٩) .

لذا فقد صارت فلورنسا منذ مطلع القرن الخامس عشر هى مركز الإشعاع الحضارى والفنى فى إيطاليا وحاملة لواء تيار النهضة .

فقد أنجبت فلورنسا أعظم فنانى هذا القرن الذين تمكنوا من اكتشاف طراز فنى جديد مستمد من أمجاد حضارتهم القديمة الإغريقية الرومانية ، وكان الحكام فى روما وميلان والبندقية يسعون فى طلب خدماتهم . (نعمت إسماعيل – ١٩٨٢–٥٨) .

فكان الفنان «برونللسكى» (١٣٧٧–١٤٤٦) هو أول من فتح الطريق لفن عمارة عصر النهضة فى فلورنسا (محمد عزت مصطفى – د.ت – ٢٠) ، حيث كان يعمد منذ مطلع القرن الخامس عشر إلى الخروج من كل تعقيد العمارة القوطية، باستيحاء الآثار الرومانية لخلق أسلوب جديد فى البناء يتميز بالرصانة والإنسجام والوضوح الهندسى واستواء السطوح ورحابة الفضاء الداخلى واستقرار البنيان ، وتسود فيه الخطوط الأفقية بقدر ماسادت الخطوط الرأسية فى العمارة القوطية .

وفى فن النحت إذ نرى «دوناتللو» فى فلورنسا يلازم صديقه برونللسكى كظله فى دراسة آثار روما القديمة ، ثم يشترك فى الثورة على التقاليد القوطية ، فينشد الجمال الكلاسيكى ، ويستوحى الطبيعة ، ويؤكد صورة الإنسان فى تماثيله ونحته البارز (رمسيس يونان – د.ت– ٢٨٦) ، ومن أبرز ممثلى فن التصوير

«مازاتشيو» حيث يعتبر ألمع نجم ظهر فى سماء الفن الإيطالى فى عصره ، إذ كشف هذا الفنان بالصور التى رقمها - تخليداً لذكرى القديس بطرس بمصلى «برانكاتشى» عام ١٤٢٣م - عن خبراته الواسعة بقواعد المنظور ومبادىء التشريح وبقدرته على تمثيل البعد بالأضواء والظلال المتدرجة على نحو أدى إلى تحقيق التمثيل الطبيعى لصور الإنسان (محمد عزت مصطفى - د.ت-٣٩) .

وإن كانت فلورنسا وكاتدرائيتها قد شكلا المركز الأول للإشعاع الفنى ، فإن روما قد لعبت دوراً هاماً فى مجال النهضة الإيطالية أيضاً وبالرغم من إنه كان من متوقعاً إن يتصدى البابوات للدفاع عن أفكار العصور الوسطى ومعارضة النهضة إلا أننا نجدهم على العكس قد حرفهم إشعاع النهضة ، فعاضدوها على أساس أن لغة الإغريقة وعلومهم تمكن القسيس من معرفة أصول الدين ، وتفيدهم قوة الحجة والجدل . (عبدالرحمن عبدالرحيم - ١٩٧٧-٣١) .

كذلك يبدو أن ماكان يتدفق من بيع صكوك الغفران (*) على خزائن الفاتيكان قد ساعد على تنشيط الحركة الفنية فى روما فى تلك الأوقات ، حيث لم يكن البابا يضن بإنفاق بعضها فى سبيل تقدم العلم وارتقاء الفن (محمد مصطفى عزت - د.ت - ٢١) .

فإجتذب البابا «نقولا» الخامس (١٤٤٥-١٤٤٧) العلماء وكافأهم على ترجمة العلوم الإغريقية ، وجمع خمسة آلاف مخطوط ، كانت نواة لمكتبة الفاتيكان التى أصبحت أكاديمية الدراسات القديمة . وقد استخدم الفن للتعبير عن الأفكار الدينية وانشأ الكنائس العظيمة (عفيف البهنسى - ١٩٨٢-١٦، ١٧) .

وفى عهد البابا «سكستوس» الرابع (١٤٧١-١٤٨٤) ، أصبحت روما بفضل الأعمال التى كلف بها الفنانين لتزين كنيسته ، مركز للإنتاج الفنى وقتاً ما ، ولكن لم تظهر مدرسة واتجاه ذو طابع رومانى محلى فى ذلك الوقت (ق١٥) ، ولم يبدأ مثل هذا الاتجاه فى الظهور إلا فى عهد بابوية يوليوس الثانى (١٥٠٣-١٥١٣) بعد أن استقر برامانتى وميكل أنجلو وأخيراً رافائيل فى روما ووضعوا مواهبهم فى

(*) صكوك الغفران : تقليد خاص بالكنيسة الكاثوليكية ، يعبر عن سلطان البابا المستمد من الله والذي يعطي له الحق في إصدار الغفران والتأديب الذي يأمر به هو ورجاله على المخطئين ، غايته التكفير عنه خطاياهم وليس إصلاح نفوسهم (القس إبراهيم عبدالسيد - د.ت - ٢٥) .

خدمة البابا ، وكانت تلك هى البداية لفترة النشاط الفنى الفريد الذى شهده القرن السادس عشر (ارنولد هاوزر – د.ت – ٣٨٥) .

ففى مطلع القرن السادس عشر استحوذت الدولة البابوية فى روما على السلطة السياسية فى إيطاليا المفككة . وكان البابوات يشعرون أنهم ورثة الأباطرة ، كما عملوا على الاستفادة من الآمال الخيالية فى إعادة مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وهى أمال كانت منتشرة فى كل ركن من أركان البلاد ، وبالفعل نجحوا جزئياً فى استغلالها لتحقيق غايتهم فى بسط سلطانهم السياسى . وصحيح أن محاولتهم السياسية لم تتحق ولكن أصبحت روما مركز الحضارة الغربية ، وأصبح لها تأثير عقلى ازداد فوق ذلك عمقاً خلال عصر النهضة بالقرن السادس عشر ، وظلت له فعاليته طوال جزء كبير من عصر الباروك بالقرن السابع عشر (أرنولد هاوزر – د.ت – ٣٨٤–٣٨٥) .

وبذلك حلت روما محل فلورنسا ، وأخذت مركز الصدارة فى حركة النهضة، وأصبحت محور البعث الفنى والذوق فى البلاد . فالفن الرومانى والإنسان الرومانى أصبحا النماذج التى يحتذى حذوها فى إيطاليا بأسرها ، ومنذ ذلك الحين أصبحت روما قبلة الفنانين ، وملتقى الأدباء الإيطاليين فيفد عليها رافائيل (*) من مدينة أوربين ميكل أنجلو (**) وليونارد

(*) رافائيل Raphael(١٤٨٣–١٥٢٠) : تكمن عظمة رافائيل في موهبته بوصفه مصوراً (موضحاً) وقد كان رافائيل علي رأس الفنانين الذين يدينون بالاتجاه الإنساني وكانت الكلاسيكية هي مانشأ عليه وعاش ، غير أن ثمة عنصراً آخر كان له أثره عليه هو مافي التوراة والإنجيل من تعاليم دينية وقصص تهذيبي شاعري وإن كان دون زثر الكلاسيكيات في حياته الفكرية . وقد مزج رافائيل بين العنصريين فاثري الحياة الفنية حين كسا القصص الديني بثوب من الكلاسيكية مؤغرقا الديانة المسيحية التي كانت بطبيعتها عصية علي الاغرقة (ثروت عكاشة – ١٩٩٠ – ٣٩٢) .

(**) مايكل أنجلو Michal Anglo(١٤٧٥–=١٥٦٤) : فنان إيطالي عمل مثالاً ومهندساً وشاعراً ، يعد واحداً من أعظم الأساتذة العالميين في هذه المجالات تتلمذ علي يد غير لاندايو وانتقل إلي دراسة أعمال جوتو مازاتشو ، ثم التحق بمدرسة التحت في حدائق ال مدتشي بفلورنسا ليتعرف علي أسرار المثالين القدامي الذين اتقنوا تصوير الجسم الإنساني أثناء الحركة بنبضه وتوتر عضله ، ثم انخرط في دراساته الخاصة بتشريح جسم الإنسان ، وقد رأي مايكل أنجلو في المثل الأفلاطونية روحانية من مطلقة ، وإذا كان الدوام في عالم الأفكار، فقد جاءت إنجازاته الفنية فلسفية كما هي جمالية ، وثنية كما هي متدينة وأفلاطونية كما هي مسيحية . وأهم انجازاته سقف كنيسة القديس بطرس بروما (ثروت عكاشة – ١٩٩٠– ٢٨٧)

دافتشى (*) من فلورنسا، وكان السبب فى توافدهم على هذا النحو إلى روما الثورات المتكررة التى اضطربت بها فلورنسا مما أدى إلى إضعافها والتطور العظيم الذى شهدته الدولة البابوية (رولان موسينيه – ١٩٨٧–٥٨) .

ومما لاشك فيه أن الفضل فى ذلك إنما يعزى إلى أولئك البابوات الذين كرسوا أعظم جهدهم على دفع الحركة الفنية بالعاصمة البابوية ، ومن هؤلاء البابا «اسكندر» السادس (١٤٩٢–١٥٠٣) والبابا «جول» الثانى (١٥٠٣) والبابا «يوليوس» الثانى (١٥٠٣–١٥١٣) والبابا «ليو» العاشر (١٥١٣–١٥٢١) . وهؤلاء كانوا من أكثر البابوات ولعاً بجمع آثار الفن اليونانى والرومانى وبالإنفاق على الحفريات لاكتشاف تلك الآثار بسخاء .

ففى جبرية البابا اسكندر السادس عشر المنقبون فى رابية البلاتين على (المهرجين) غروتسكية ، (Grotesques)(**) ، وفى عهد البابا «جول» الثانى قامت حفريات علمية منهجية عثر فيها على آثار مثيرة منها تمثال (لاوكون Laocoon) (***) (زهرة الفاتيكان) وتمثال (كليوبطرا) (رولان موسينيه –

(*) ليوناردو دافنشى Leoard, Da Vinci(١٤٥٢–١٥١٩) : عبقرية من عبقريات عصر النهضة تميزت في الفنون كما تميزت في العلوم وكانت آثاره التي خلفها في الفن اشارة إلي الاتجاهات الحديثة التي جاءت بعده كما كانت آثاره العلمية النبوءة التي حققتها عصور تلته وقد انجز ليوناردو مجموعة كبيرة من الأعمال كان من أبرزها لوحة «عذراء الصخور» حيث تتمثل أستاذية الأداء ونضارة التعبير والتوازن بين الجمال الطبيعي والجمال المثالي (بدر الدين أبو غازي – د.ت – ٣٠٤–٣٠٥) .

(**) المهرجين أو الغرونتسكية Grotesques : أسلوب تصويري وجد منقوشاً علي جدران الكهوف الطبيعية وفي أطلال المباني الرومانية القديمة من أجل هذا غلب عليه اسم gro-tesque المشتق من كلمة grotta الإيطالية وهي تعني الكهف . وقد أمدتنا حمامات تيتوس والقصور الرومانية القديمة بكثرة من هذه النماذج التي أطلقت عنان الخيال لفناني عصر النهضة الذين حاكوها واضافوا إليها في مجال التصوير والحليات المعمارية ، ويحمل هذا المصطلح أيضاً معني فن زخرفي نحتاً وتصويراً وعمارة يتميز بتصاوير ومنحوتات خيالية غريبة للإنسان أو الحيوان أو الكائنات خرافية لاتمت إلي الواقع بسبب . وتكون عادة متشابكة تمازجها أشكال نباتية وزهور وثمار وأكاليل وما شابهها من تكوينات مهجنة شاذة عجيبة (ثروت عكاشة –١٩٩٠–١٩٢) .

(***) لاكوون Laocoon : اتجه الفن المتأغرق Hellenenistic Art إلي الحدة والعنف ليجلو العواطف الجياشة ، وأبرز نماذجه تمثال اللاوكوون الذي خرج إلي النور في عام ١٥٠٦ فاجتاحت الفنانين وعشاق الفن موجة عارمة من التأثر بهذه المجموعة التي تحكي مشهداً موجعاً حزيناً وصفه الشاعر فرجيل في ملحمة (الأنيادة) ولقد وردت قصة لاوكوون ابن الملك=

١٩٨٧ – ٦٠) . وفى عهد البابا يوليوس الثانى اكتشف أجمل تمثال للمعبود الوثنى (أبوللو) (*) وقد اقترن اسم البابا بهذا الاكتشاف وهو منصوب ببهو (البليفيدير) بقصر الفاتيكان بروما (محمد عزت مصطفى – د.ت – ٢١) .

وفى عهد حبرية البابا «ليو العاشر» بلغت النهضة قمتها فى روما ، وكان يعاضد الفن والأدب ، ولا غرابة فانه ابن لورنزو العظيم ، فلما ولى البابا «ليو العاشر» عرش الفاتيكان كلف الفنان «رافائيل» بناء كاتدرائية القديس بطرس ، ودعا (مايكل انجلو) للإسهام فيها ، وبهذا عادت الكنيسة للظهور لتخليد طراز النهضة (عبدالرحمن عبدالرحيم – ١٩٧٧–٣٢) .

ولم تقف العمارة بروما عند هذا الحد ، إذ شيد البابا «ليو العاشر» فيها آلاف الدور للسكنى ، وأنشأ الجامعة وأجرى عليها النفقة السخية ، كما أسس مكتبة الفاتيكان وملأها بأمهات المخطوطات الأدبية والعلمية ، وفى مقدمتها مؤلفات (هيرودت) وكذلك الكثير من مؤلفات علماء العرب ، كما أوقف حركة هدم المبانى الأثرية من عهد الرومان ، وبهذا كان من أكبر أنصار الحركة الإنسانية التى هيأت لعودة الفن الكلاسيكى إلى إيطاليا بعد أن اختفت روح أثينا وروما من الوجود (محمد عزت مصطفى – د.ت – ٢٢) .

ولذا فإن بابوات تلك المرحلة كانوا على درجة عالية من تفتح الذهن ، بحيث نهضوا بالفن نهضة شملت رعاية أهله إنشاء المرافق الثقافية التى تكفل

= بريام وهيكوبا وكاهن ابوللو الطروادي ، الذي قضي عليه مع ولديه ثعبانان عملاقان بصور مختلفة في الأدب الكلاسيكية ، أقدمها رواية ترجع إلي أواخر) . القرن ٢ق.م منسوبة إلي الشاعر اليوناني يوفوريون . وتحكي كيف هاجم ثعبانان دفع بهما أبوللو صوب الكاهن لاوكوون فقتلاه لأنه كان قد آثار غضب الإله اذ دنس معبده (ثروت عكاشة – ١٩٠٠–١٩٢ .

(*) أبوللو Apollo : هو اله الفن والشعر والموسيقي وراعي الماشية ورسول ابيه زيوس للالهة والبشر ، يعد رباً للشمس ذاتها ، وكان إلهاً للغيب فاقام الناس له المعابد يستنبئون كهنتها عن مصيرهم ، والها للشباب فما يكاد الفتي يبلغ مرحلة الرجولة حتي يقص خصله من شعره يطوح بها وكأنه يهديها أليه ، صوره الإغريق علي هيئة شاب وسيم الطلعة تتموج خصلات شعره الذهبية ويكلله اكليل الغار ، وعلي كتفه تنساب أحياناً عباءة طويلة، ويحمل قوساً وجعبته غاصة بالسهام وقيثارة ، ومرتكزاً مقدساً ذا قوائم ثلاثة ويمسك بعصا الراعي، وينتقل في مركبة عجيبة تجرها جياد أربعة ، ترافقه ربات الساعات والفصول . (ثروت عكاشة– ١٩٩٠–٢٠) .

إنعاشه ، فقد قام البابا «سيستو الرابع» بأعمال عظيمة من أهمها ، إنشاء أول متحف فى تاريخ علم الآثار ، كانت له شهرة كبيرة فى أرجاء أوربا وفى سنة ١٥٥٥ ، بلغ عدد المجاميع الفنية من الآثار ٩٥ مجموعة فى روما وحدها ، حيث توافد الفنانون من جميع الأنحاء ليمتعوا الأنظار برؤيتها واستلهام نماذجها (رولان موسنيية -١٩٨٧-٦٠) .

لهذا يمكن القول إذ كانت النهضة فى (ق١٥) قد تميزت بأحياء القديم وربطه بالتيارات الحديثة فإن هذا العصر (ق١٦) قد أدخل الخلق الفنى فى محيط النشاط الفكرى ، ومن هنا بدأ التركيز على شخصية الفنان ، وتأكد الإحساس بأن العمل الفنى هو ثمرة موهبة منشئة ونتاج عبقرية ، فنحن فى القرن السادس عشر أمام عصر عباقرة ، مثل ميكل أنجلو وتيسيان ودافنشى ورافئيل وتينتوريتو ، الذين مازالت آثارهم فى روعتها تتخطى حدود زمانها ومكانها وتخاطب الإنسانية فى أجيالها المتعاقبة (بدر الدين أبوغازى - د.ت - ٣٠٣) .

وبالرغم من أن الفنون التشكيلية قد ازدهرت بأنواعها المختلفة فى إيطاليا فى القرن السادس عشر ، وبلغ هذا الازدهار درجة كبيرة لم تعرف من قبل فى تاريخ الفنون ، إلا أن فن التصوير كان هو أسبق الميادين التى ساهمت فى إثراء عصر النهضة الذهبى (نعمت إسماعيل - ١٩٨٢-٨٦) . حيث بدأ منهج جديد فى التصوير كان يقضى بدراسة التشريح على جثث الموتى ، ودراسة الأزياء عن طريق استخدام المانيكان وقواعد المنظور الهندسى ومبادىء علم النفس بحيث يستطيع الفنان أن يعبر عن موضوعه تعبيراً متكاملاً ويقال أن أول من استخدم المانيكان فى دراسة الملابس هو الراهب «بارتولوميو» الذى عاش لفترة يأخذ عن فن «رافائيل» «وليوناردو» و«مايكل انجلو» وغيرهم من أقطاب عصر النهضة العظام (محمد عزت مصطفى - د.ت -١٣) وقد كان لذلك أهمية كبيرة فى معرفة جميع المعلومات الدقيقة عن أزياء تلك الفترة بكل تفاصيلها (Yarwood-1992-8) .

وهكذا ظهرت النهضة فى إيطاليا ثم أخذت فى النمو والانتشار وسارت طريقها بخطى وئيدة ثابتة تنشد الكمال . فلم تعوقها صعوبات ولم يقف فى طريقها عقبات غير أنها لم تكن مستقرة سياسياً خلال القرن السادس عشر فثمة حروب بين ميلانو ونابولى والبندقية ، كما كان لظهور حركة الإصلاح الدينى

آثارها على النهضة الإيطالية وقد تمثلت هذه الحركة فى تذمر الشعب وسخطه على الكنيسة الكاثوليكية لفسادها الذى ظهر فى الاتجار فى صكوك الغفران والمناصب فى الكنيسة ، وقد أدت هذه الحركة إلى انقسام أوربا إلى حزبين قويين، حزب الكاثوليك الذى يؤيد البابوية ، وحزب البروتستانت يناوئه ويحاجه بالسيف والقلم فتنشب حروب وترتكب جرائم بين الحزبين (ارنولد هاوزر-٤١٢) (أحمد فهمى الحكيم-١٩٢٨-١٤) .

ولهذا أصبحت إيطاليا منقسمة على نفسها ، فلم تلبث أن أصبحت مصيدة للأوربيين وفريسة للمنافسة بين الملكيات القوية التى نشأت فى غرب أوربا وأصبح كل منها يطمع فى ثروة شبه الجزيرة (وليام لانجر -١٩٦٣-١٠٥٤) . فبدأ الفرنسيون باحتلال نابولى ثم ميلانو ، وأخيراً فلورنسا وظلوا محتفظين بمراكزهم هناك إلى سنة ١٥٢٥ ، ولكن سرعان ماطردهم الأسبان ، عندما هزم «فرانسوا» الأول فى موقعة بافيا وأخذ أسيراً إلى أسبانيا (عمرو سليم -١٩٢٣-١٢) (ارنولد هاوزر-د.ت-٤٠٧٠، ٤٠٨)

وفى سنة ١٥٢٧ غزت أسبانيا إيطاليا واستولت عليها ونهب جيوشها الكنائس والأديرة ، وحولت كاتدرائية القديس بطرس إلى إسطبل ، والفاتيكان إلى معسكرات للجند وأصبح البابا لاحول له ولاقوة ، كما أن كبار رجال الدين ورجال البنوك لم يستطيعوا الشعور بالأمان فى روما ، وبذلك أصبحت إيطاليا فى قبضة «تشارلس» الخامس ملك أسبانيا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة (جون .أ. هامرتن-د.ت-٥٣٧) (وليام لانجر-١٩٦٣-١٠٦١) . وبذلك ساد أسلوب الحياة الأسبانى والقانون الأخلاقى الأسبانى ، وآداب اللياقة الأسبانية والأناقة الأسبانية فى المركزين الفنيين فى إيطاليا وهما روما وفلورنسا .

ومن جهة أخرى فإن السيطرة العقلية للغزاة ، الذين كانت ثقافتهم متخلفة بالقياس إلى الإيطاليين ، لم تتغلغل بعمق كبير وظل ارتباط الفن بالتراث القومى قائماً لكن فى ظل هذه الأزمة التى احتاجت إيطاليا بأسرها فى القرن السادس عشر، والتى امتدت إلى جميع ميادين الحياة السياسية ، الاقتصادية ، الدينية ، والثقافية ، أصبح من المستحيل الاحتفاظ بتصور خيالى لحالة مستقرة متوازنة ، فكانت الحالة النفسية السائدة فى إيطاليا هى الشعور بكارثة على وشك الوقوع وسرعان ما انتشرت هذه الحالة إلى أوربا الغربية بأسرها ، وبالتالى قد انعكس أثرها على الفن (ارنولد هاوزر - د.ت - ٣٣٩، ٤٠٨) .

فأصبحت الصيغ المتوازنة الخالية من التوتر التى كان ينادى بها الفن الكلاسيكى لعصر النهضة غير كافية أثر هذه الصدمة ، لذا ظهر طراز فنى جديد ليعبر عن هذه الأزمة وقد عرف باسم المانرزم أو التكلفية أو النهجية (Manner-ism)(*) لأنه يتبع منهجاً جديداً مختلف مضاد للكلاسيكية معقد وغامض (Corlo Argan-1989-10) (Van-Schaack-1964-3)(ثروت عكاشة – ١٩٨٨–١٢٣) .

وقد أطلق على فنانيه الافتعاليين (Mannerists)لأنهم جمعوا بين محاكاة النماذج الكلاسيكية وبين تشويها فى آن واحد . (ارنولد هاوزر – د.ت–٣٩٩) .

وقد بدأ بتأسيس هذا الطراز مجموعة من مصورى روما وفلورنسا فى منتصف القرن السادس عشر اشتقوا أساليبهم الذاتية المصطنعة المتكلفة من بعض مظاهر أسلوبى ميكل أنجلو ورافائيل ، حتى أن بعض العلماء قد توسعوا فى تعريفهم للتكلفة بحيث يشمل إطارها الجديد المرحلة الأخيرة من مراحل أسلوب ميكل أنجلو نفسه . وقد كان من أكثر المصورين التكلفين تطرفاً فى التمرد على التوازن الكلاسيكى لعصر النهضة هم رسو ويونتور فى فلورنسا ، ويارميجانينو فى بارما ، وهؤلاء هم المؤسسون لهذا المذهب الذين أخذوا بعض أساليب عن رافائيل ميكل أنجلو ثم أجروها عليها بعض التعديلات لتبتعد عن الكلاسيكية (ثروت عكاشة – ١٩٨٨–١٢٣) (نعمت إسماعيل – ١٩٨٢–٢٠) ، فبدت النهجية بأشكال مختلفة ، بعضها يقوم على تعديل النسب فيبدو الرأس صغير بالنسبة لاستطالة الجسم الغير طبيعية ، وذلك فى أوضاع غير عادية ليثبتوا أنهم أمهر من فنانى عصر النهضة فى الوصول إلى تأثيرات عاطفية أو زخرفية ، والبعض منها يبالغ فى تسجيل الإنفعالات بطريقة متكلفة غير عادية بإظهار النور المركز والتضاد القوى ، كما كان لبعضها اتجاه تكعيبى يسعى إلى تجسيم الأشياء إلى درجة التضليع (عفيف البهنسى–١٩٨٢–٨٢) (نعمت إسماعيل –١٩٨٢–١٢٠) .

بل لقد كان عباقرة النهضة أنفسهم يستسلمون أحياناً لتأثيرات قلقة غريبة ،

(*) المانرزم (Mannerism) : هو الاسم الذي أطلق علي الأسلوب المسيطر علي الفنون في إيطاليا من سنة ١٥٢٠ تقريباً حتي سنة ١٥٩٠ وهذه الكلمة قد جاءت من dimaniera والتي تعني فساد أو تشويهه وقد أشار أحد الكتاب إلي أن الاختلاف في العمل الفني بدون الرجوع إلي الطبيعة ولكن الاعتماد علي الفكرة الداخلية للفنان هي التي شكلت هذا الاتجاه الذي بدا مخالفاً لاتجاه عصر النهضة (Benton-1965-Vol.14th,798)

وهكذا كان ليناردو دانفشى نفسه واسطة للعودة نحو العدم ، فلقد أوحى بذلك من خلال تعبيراته عن منشأ الطبيعة ، أما ميكل أنجلو فقد عبر عن هذا القلق فى كل مرة يحاول فيها تصوير الإنسان الذى تخلى عنه الله ، حتى رافائيل يظهر إتجاه نحو العالم المليء بالغليان والحرائق فى بعض رسوم الحفر المحفوظة فى اللوفر التى تظهر ذلك . وهكذا قام الفن النهجى على دراسة الشكل والمساحة واللون والنور على أساس إبراز التعبير النفسى القلق إلى درجة التحوير وعمل على تحطيم مبادىء النهضة بأنه أحل التحوير مكان الإنسجام والهوى مكانه القياس ، والقلق عوضاً عن الطمأنينة (عفيف البهنسى – ١٩٨٢–١٤، ٨١ ، ٨٢) .

وقد انتشر هذا الطراز إلى بقية المراكز الفنية فى إيطاليا ، كما لافى ترحيباً من الحكام الأرستقراطيين فى كل بلاط أوربى ، مثل بلاط فرانسوا الأول فى فونتنبلو وفيليب الثانى فى مدريد ، وغيرهم ، وبذلك صار طرازاً دولياً (أرنولد هاوزر – د.ت–٤٠٤) . ويمثل هذا الطراز الأسلوب الرئيسى فى الفترة الواقعة بين العقد الثالث من القرن السادس عشر وبين نهاية القرن ، ولكنه لايسود القرن بلا منازع ، وإنما يختلط باتجاهات يسودها أسلوب الباروك الذى يمثل رد الفعل المقابل لحركة المانرزم التى عملت على تشويه الشكل . وقد كان الاتجاهان متشابكان تشابكاً وثيقاً فى الأعمال المتأخرة لرافائيل وميكل أنجلو وبالتالى فإن المانرزم والباروك ظهرا فى وقت واحد تقريباً نتيجة للأزمة العقلية التى عانت معها العقود الأولى من القرن السادس عشر (Van Schaack-1964-7) (Carlo Argan-1989-10) .

وواقع الأمر أن الصراع بين الأسلوبين كان اجتماعياً ودينياً أكثر منه تاريخياً ، فالمانرزم هو الأسلوب الفنى لطبقة مثقفة ارستقراطية ذات ميول عالمية فى أساسها ، على حين أن الباروك المبكر أو المتقدم تعبير عن اتجاه أكثر شعبية وانفعالية وقومية (ارنولد هاوزر – د.ت – ٤٠٤) .

كما يعتبر اتجاه الباروك هو التعبير الفنى الأصيل والمباشر عن حركة الإصلاح الدينى المضاد التى ظهرت كرد فعل لحركة الإصلاح الدينى البروتستانتى . وقد سمحت حركة الإصلاح المضاد للفن بأكبر دور يمكن تصوره فى العبادة الإلهية ، فإنها كانت بذلك تعرب عن رغبتها فى التمسك بالتراث المسيحى للعصور الوسطى وعصر النهضة حتى تؤكد على هذا النحو عدائها لحركة الإصلاح الدينى البروتستانتى . أى أنها أرادت أن تبدى عطفها على الفن

على حين أن المهرطقين كانوا معادين له ، بل أنها أرادت قبل كل شيء أن تستخدم الفن سلاحاً ضد المذاهب الخارجة على تعاليم السلف وقد تحقق لها ذلك فى أسلوب الباروك (برنارد مايرز – ١٩٥٨-٣٦١) (أرنولد هاوزر – د.ت – ٤٢٥) (لويجى بارزينى – د.ت – ٤٥٩) .

وبالرغم من أن المانرزم كان طرازاً دولياً من أوسع الحركات الفنية انتشاراً فى ذلك الوقت إلا أن فن الباروك هو الذى تحقق فيه لأول مرة البرنامج الفنى لحركة الإصلاح المضاد ، وتحقق فيه انتشار الكاثوليكية من خلال أداة الفن بين الجماهير العريضة من الناس ، وذلك لأن فن المانرزم كان فناً يجتذب فئة محدودة من المثقفين ، أمام فن الباروك كان فناً للشعب وبذلك اضطرت حركة المانرزم التنحى عن مكانها لحركة الباروك لعجزها عن تحقيق المهام الكنسية التى كانت حركة الإصلاح المضاد تطالب بها الفن . (أرنولد هاوزر – د.ت-٤٢٦) .

ولقد أخذ النهج الباروكى فى الانتشار منذ ظهرت جماعة اليسوعيين(*) (الجيزويت) ومست حاجتهم إلى بناء الكنائس للدعوة إلى مذهبهم ، فشيدت تلك الكنائس التى تبدى الشغف بالضخامة والولع بالزخارف المثيرة للإعجاب ، وغمرت الكنائس بالألوان البراقة والزخارف المفرطة (محمد عزت مصطفى – د.ت – ٢٨) .

الكنائس التى تبدى الشغف بالضخامة والولع بالزخارف المثيرة للإعجاب ، وغمرت الكنائس بالألوان البراقة والزخارف المفرطة (محمد عزت مصطفى – د.ت – ٢٨) ووضع المهندس «فينولا» النموذج الأول لكنيسة اليسوع بروما على المنهج الباروكى بحيث ترمز إلى قدرة الكنيسة ومجدها المتزايد ، فغدت نموذجاً تحتذيه كنائس الباروك المنتشرة فى أنحاء أوربا خلال القرن التالى ، وصورت على جدرانها جماعات الملائكة والقديسين المحيطين بالسيد المسيح من جميع الاتجاهات ، وبرزت ألوانها الصارخة وحركات شخوصها العنيفة لتثير المشاهد وتتركه تائهاً بين الحقيقة والخيال (ثروت عكاشة – د.ت -١٣٢) .

وبذلك عقب فن النهضة فن الباروك ، ولكن بين النهضة والباروك كان

(*) جماعة أليسوعيين (الجيزوت) : هي جماعة دينية سعت بكل الطرق وشتي الوسائل إلي النهوض بالكاثوليكية ورفع مستواها . وأصل تكوينها يرجع إلي فكرة قامت بذهن (اجنات لويولا) أحد الأسبان الذي جرح في حرب مع فرنسا ، وقد اعترف البابا بهذه الجماعة عام ١٥٤٠ (أحمد فهمي الحكيم -١٩٢٨-٢٢) .

المانرزم الذى تميز بالتضارب والتعقيد ، لذا فقد عقبه فن الباروك الذى يعتبر رد الفعل المقابل لحركة المانرزم التى عملت على تشويه الشكل (Carlo Argan-1989-10).

ثانياً : عصر النهضة في فرنسا بالقرن السادس عشر

وما أن بلغت النهضة الإيطالية قمتها فى القرن السادس عشر «العصر الذهبى لإيطاليا» ، حتى انتشرت إلى فرنسا وبقية أوربا ، وقد حررت النهضة الأهالى من الأفكار ، والمعتقدات البدائية ، التى تغللت فى عقولهم طوال عدة قرون (ليليان .ج. براجدون – ١٩٦٢–٦٣) ، وتعتبر فرنسا من أهم البلاد الأوربية التى ظهرت فيها آثار النهضة بسهولة (عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم – ١٩٧٧–٣٥) ويرجع ذلك لعدة عوامل جعلت فرنسا من أولى الدول الأوربية استجابة للنهضة الإيطالية .

يعتبر الموقع الجغرافى المتميز لفرنسا أولى العوامل التى مهدت لاستجابة فرنسا السريعة للنهضة الإيطالية حيث تتمتع فرنسا بمميزات جغرافية لاتتوافر لأية دولة أخرى فى أوربا ، فهى البلد الوحيدة التى تطل على كل من البحر المتوسط ، والمحيط الأطلنطى والقنال الإنجليزى وبحر الشمال ، وتمتد بين البحر المتوسط والقنال الإنجليزى فى شكل صندوق سداسى الأضلاع ، وتقع جبال الألب فى الجنوب الشرقى منها ، وجبال البرانس بين المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط لتفصلها عن أسبانيا وتعتبر هذه الجبال أعظم جبال أوربا أروعها جمالاً . خريطة رقم (١) . (ليليان .ج. براجدون –١٩٦٢–٣ ، ٤) . ولهذا كانت فرنسا بحكم موقعها هذا مركزاً وسطاً التفت فيه التأثيرات الآتية من الشمال ، أى من الفلاندرز والتأثيرات الآتية من جنوب الألب ، أى من فن النهضة الإيطالية ، وذلك فضلاً عن التأثيرات المحلية النابعة من تراثها القوطى (رمسيس يونان – د.ت – ٢٧٥) وبذلك أصبحت فرنسا ملتقى الثقافات المختلفة بحكم موقعه الجغرافى ، وقد أعطى ذلك للشعب الفرنسى مرونة فكرية واستجابة سريعة للطراز الباروكى للنهضة الإيطالية .

وقد كان من أهم العوامل التى ساعدت على ظهور النهضة الإيطالية فى فرنسا بسهولة ، هو أن كلتا المملكتين لاتينية الأصل ، فكان العنصر السائد فى فرنسا العنصر اللاتينى ، وقد سهل ذلك على أبنائها أن يميلوا كل الميل إلى درس

الأدب الرومانية والإغريقية ، وقد نالت تلك الأدب جانباً عظيماً من الاهتمام الحق بفرنسا (عمر الإسكندرى وسليم حسن – ١٩٢٣–١٩) ، بالإضافة إلى ذلك كانت باريس فى القرن الثالث عشر ببلاطها الزاهر وجامعتها التى يحج إليها الطلاب ، والأساتذة من شتى الجنسيات ، محور الحضارة الأوربية وقلبها الخفاق ، ولكنها أخذت تفقد مكانتها فى القرن الرابع عشر بسبب حرب المائة عام التى أنهكت فرنسا (رمسيس يونان – د.ت – ٢٦٤) .

ولكن من بدايات القرن السادس عشر أصبحت باريس من أكبر المعاهد العلمية فى أوربا يؤتى إليها بكل المباحث العلمية الجديدة ، على أنها تشجع على إيجاد الصلات بينها وبين كل معهد علمى فى غيرها من البلدان (عمر الإسكندرى وسليم حسن – ١٩٢٣–١٩) ، وقد كانت إيطاليا من أهم هذه البلدان ، حيث كان لتبادل البعثات الدراسية بين جامعتها وجامعة باريس أثر كبير على استجابة فرنسا للطراز الباروكى الإيطالى .

هذا وتمثل الغزوات الحربية المتكررة لفرنسا بإيطاليا عاملاً لظهور النهضة بها ، حيث بدأت فرنسا تقتفى آثار النهضة الإيطالية منذ أن غزت جيوشها إيطاليا على يد «شارل الثامن» ، و«لويس» الثانى عشر و«فرنسوا» الأول ، وأثناء ذلك تمكن الفرنسيين من مشاهدة روائع النهضة الإيطالية ، ولإعجابهم الشديد بها حبب إلى نفوسهم نقل الحضارات والثقافات الإيطالية إلى بلادهم (محمد عزت مصطفى – د.ت–٨٧) وبذلك بدأت العلاقات بين هاتين المملكتين ، وبقيت قوية متصلة ، حيث وجد بالقصر الملكى الفرنسى عندئذ سمعة من الأخلاق والعادات الإيطالية وأثرت الآداب الإيطالية فى الآداب والفنون الفرنسية (جون .أ. هامرتن – د.ت – ٣٤٥) . وبهذا انفسح الطريق للعلوم والآداب فى فرنسا منذ بداية القرن السادس عشر ، على أن اللغة الإغريقية كانت تدرس فى فرنسا قبل ذلك الوقت ، إذ جعل جريجررى تيفرناس الإيطالى أستاذاً لها فى جامعة باريس عام ١٤٥٨ ، ثم حاضر العالم الشهير «يوحنا لسكارس» فى هذه اللغة إبان حكم «شارل» الثامن و«لويس» الثانى عشر و«فرانسوا» الأول ، كما حضر العالم «جيروم البنذر» الإيطالى إلى باريس عام ١٥٠٨ وحاضر باللغات الإغريقية واللاتينية والعبرية ، وهو يعتبر أول عالم بث روحاً جديدة فى دروس علم اللغات فى فرنسا (عمر الإسكندرى وسليم حسن–١٩٢٣–١٩) ، وقبل حلول هذا العالم بأرض فرنسا كانت نهضة نشر الكتب الإغريقية قد ظهرت فى باريس ثم خطت خطوات واسعة ، فتفوق فى ذلك

المحترفون بالطباعة الفرنسيين ، وأول مطبعة أنشأت فى باريس لنشر الكتب الإغريقية أسسها «جورمو» وظهر بعض مطبوعاتها سنة ١٥٠٧ ، ثم أخذت بعد ذلك المطبوعات النفيسة من تأليف عظماء اليونان الأقدمين ، وقبل انتهاء الصف الأول من القرن السادس عشر أصبحت باريس مركز لنشر الكتب القديمة ومن هذا لوقت أخذت هذه الحركة تزداد فيها (جواهر لال نهرو – ١٩٥٧–١٩) .

بالإضافة إلى ذلك فقد أقتنى ملوك فرنسا فى ذلك الوقت عدداً لاحصر له من الطرف الإيطالية ، كما دعوا إلى بلاطهم أشهر فنانى إيطاليا فى ذلك الوقت ، (محمد عزت مصطفى – د.ت – ٨٧) ، ولعل فرانسوا الأول كان أكثر هؤلاء جميعاً حماسة لطراز النهضة الإيطالية فعمل على جذب الفنانين ، والمعماريين ، والشعراء ، ودارسى الإنسانيات ، من إيطاليا إلى البلاط الملكى الفرنسى ، وليس ذلك فقط ولكن الترزية أيضاً وأعداداً كبيرة من العمال الإيطاليين أقاموا فى ليونا وباريس وتورز وانتشرت ورشهم وإنتاجهم فى البلاط الملكى كذلك أقام فرانسوا الأول شهرة عالمية للموضة من جينوا وفلورنسا وفينيسيا وميلان ، لنسج الجوارب الحريرية ، وفوق كل ذلك لنوعيات الحرائر الفاخرة والوبريات المستوردة من إيطاليا (Kemper-1979-87) (Boucher-W.D-231) .

ويعتبر الملك فرانسوا الأول أول ملك فرنسى حاول أن يقلد كبار الأمراء الإيطاليين من حيث حمايتهم للفن وتشجيعهم له . ولقد دعا ليوناردو دافنشى لزيارة فرنسا حيث قضى سنواته الأخيرة فيها ، كما دعا اندريادل سارتو وغيره من الفنانين (ليليان .ج. براجدون – ١٩٦٢–٦٤) وقد أنشأ مركزاً فنياً بضاحية «فونتابلو» قرب باريس ليكون من أعمالهم المثل الذى يحتذيه فنانو بلاده فى إنتاج الفن من كل نوع ، كما تؤرخ تلك الفترة نزوح عدد كبير من شباب المهندسين والفنانيين الفرنسيين إلى إيطاليا لدراسة آثارها الرومانية وأثر عصر النهضة ونستنتج من ذلك أن تقدير الفرنسيين لفن إيطاليا قد تحول إلى موجة جارفة من الإعجاب به ، شملت مبانى فرنسا كافة .

وكان ألمع هؤلاء الشباب «جان بيلان» و «دولورم» و «ليسكوت» ، ونجح أغلب هؤلاء فى الاضطلاع بمشروعات العمارة الجديدة كبناء قصور «اللوفر» و«إيكووان» و «التويليرى» ، وكان مشروع هذا الأخير بتكليف من الملكة «كاترين دى ميدتشى» "Chatherine de Medici" ، ولكن ظلت قصور فرنسا تجمع بين عناصر الطراز القوطى ومبادىء العمارة الإيطالية فى عصر النهضة لفترة ليست

بقصيرة ، حتى سيطرت تلك المبادىء على مبانى فرنسا تماماً إعتباراً من القرن السابع عشر (محمد عزت مصطفى – د.ت – ٨٨ ، ٨٩) .

وبهذا يعتبر هذا الملك هو صاحب الفضل فى خلق الاهتمام بالفنون فى فرنسا . وليس معنى ذلك أنه لم تكن هناك فنون فى فرنسا قبل هذا العصر ، فقد كان هناك عدد من هؤلاء الفنانين على الأخص من الذين نزحوا إلى فرنسا من نابلى ، كما أن هناك بعض التماثيل والتحف والفنية والمقابر الممتازة قد صنعت فى إيطاليا ثم استقدمتها منها فرنسا أو أوصت بصنعها هناك خصيصاً كمقابر «شارل» الثامن وأسرته . ولكن منذ أصبح «فرنسوا» الأول حامى الفنون بدأت فرنسا تقلع عن مجرد التقليد وتظهر طابعها الشخصى فى إنتاجها الذى أخذ يزدهر بشكل واضح ، كما أن فرنسا بدأت تمد أساس المتاحف الفرنسية الحديثة كاللوفر وغيرها بشراء ثروة من اللوحات العالمية . ومن أهم هذه اللواحات التى أشترها «فرانسوا» الأول «الجيوكوندا» ، «القديسة آنا» ، «المكوجية الحسناء» و «البستانية الجميلة» وغير ذلك من اللوحات العالمية ، بالإضافة إلى عدد آخر أهدى إلى الملك بواسطة الكاردينال دى مدتشى (محمد فريد أبو حديد – د.ت – ٢٠٣) على أن فرنسا كانت لها مدرسة فى فن التصوير خلال هذا العصر ، وكانت لها فى النحت عبقرية متميزة فى شخص جان جوجون .

أما التصوير فتمثله مدرسة فنتبلو التى تمثل مركز الفكر والفن والثقافة فى هذا العصر فإلى جانب فنانى إيطاليا الذين استقدمهم فرانسوا الأول ، ظهرت هذه المجموعة التى أبدعت لفرنسا فى هذا العصر بعض الروائع الفنية ، إلى جانب ما أبدعه فيها أندريا دل سارتو "Del Sarto" ، وروسو ، وليوناردو ، الذين استقدمهم «فرنسوا» الأول من إيطاليا ، وطبع «فرنسوا» الأول بطابعة الذوق الفرنسى ووجهة نحو البحث عن فن حديث تسوده الرقة والأبهة ووضاءه الهدوء السعيد .

وكان أكثر اتجاه الفن فى هذه الحقبة نحو «الصورة الشخصية» أبدعها جان كلويه "Jean Clouet" الذى تنسب إليه لوحة «كلوددى لوران» ولوحة «فرانسوا» الأول على صهو جواده ، وقد استمد كلويه خصائص فنه من تصوير المثمنات فى القرن الخامس عشر ، حيث يتضح فيه تأثير الفن الإيطالى فى استخدامه علم المنظور الهندسى وفى اهتمامه بالمنظر الطبيعى فى خلفية الصورة ، ومن أسلوب «المانرزم» الإيطالى الذى نفد إلى فرنسا (بدر الدين أبو غازى – د.ت – ٣٣١) وبهذا كان التصوير فى فرنسا يتحدث الإيطالية – بلهجة فرنسية فى المبدأ ، ثم

بالإيطالية لغة ولهجة منذ بزغت شمس القرن السابع عشر ، وبلغ من قوة هذه الرابطة أن كان المصور «كوزان» "Cozan" ينقل عن نماذج إيطالية فيما كان يخرجه من لوحات للكنائس الفرنسية كلوحة الحساب الأخير المحفوظة حالياً بمتحف «اللوفر» بباريس (محمد عزت مصطفى – د.ت – ٩٣ ، ٩٤) .

ويمثل جان جوجون "Jan Jojon" أروع ما قدمته فرنسا للفن فى هذا القرن، فهو الذى اعتنق اتجاه عصر النهضة نحو إحياء القديم ، ووفق فى أبحاثه إلى خلق نحت فرنسى يستلهم التراث الإغريقى (بدر الدين أبو غازى – د.ت – ٣٣٢-٣٣٣) .

هذا ولم يكن فرانسوا الأول مولعاً فقط بالأشياء الجميلة بل كان يحب أن يستمع أيضاً إلى جميل الحديث ، فكان يشجع فنون الأدب ، ففى أثناء حكمة ، أنشئت كلية فرنسا ، وهى من أقدم الجامعات مفتوحة أمام الجمهور بدون رسوم وقد زاد عدد أساتذتها زيادة كبيرة ويعتبر الانضمام إلى زمرتهم شرفاً يسعى إليه العلماء (ليليان .ج. براحدون – ١٩٦٢-٦٦) .

ومع كل هذا التقدم والازدهار الذى بلغته فرنسا فى عصر النهضة بالقرن السادس عشر إلا أن حركة الإصلاح الدينى التى ظهر بوادرها فى أثناء حكم فرانسوا الأول ، قد أخذت تنتشر فى جنوب وغرب فرنسا وأنضم إليها أناس من الأوساط المختلفة وخصوصاً من طبقة الأشراف الذين رأوا فى الحركة منفذاً لقضاء مآربهم السياسية واسترداد شىء من نفوذهم الذى سلبه الملوك منهم ولذلك كانت حركة الإصلاح فى فرنسا صبغة سياسية أكثر منها دينية وسمى المصلحون فى فرنسا «الهيجونوت» (*) (أحمد فهمى الحكيم – ١٩٢٨-٤٧) .

وبالإضافة إلى ذلك تعرضت فرنسا لطمع أقوى دول الغرب كإنجلترا وأسبانيا وقد أدى كل ذلك إلى اشتعال الصراع فى البلاد ، فمرت فرنسا بفترة طويلة من الحروب الدموية خلال هذا القرن ولم تكن أسباب النزاع مقصورة على الرغبة فى التوسع وزيادة السلطة بل كانت ترجع أيضاً إلى الاختلافات الدينية ، فالملوك الذين كانوا يدينون بالكاثوليكية ، كانوا يضطهدون البروتستانت ، وقد ظهر ذلك فى أثناء حكم «تشارل» التاسع حيث حدثت مذبحة بارثولميو الرهيبة

(*) الهيجونوت : هم البروتستانت الفرنسيين المتعصبين في جنوب وغرب فرنسا (Yarwood-1992-44) .

وقتل فيها آلاف الأبرياء (ليليان .ج. براجون – ١٩٦٢–٦٦) .

وبذلك عقبت فترة الازدهار التى شهدتها فرنسا نتيجة لنقل روائع وآثار النهضة الإيطالية ، فترة من الحروب الدموية والصراع المرير ، فبلغت فرنسا من الضعف نتيجة المذابح التى لم تتوقف فيها والمجاعات والأوبئة المنتشرة بها .

ونستخلص مما سبق :

أن النهضة ظاهرة أوربية قد ظهرت فى مجتمعات البلاد الأوربية فى أواخر القرون الوسطى . وكان قطباها الرئيسيان إيطاليا فى الجنوب والأراضى الواطئة فى الشمال (الفلاندرز – فرنسا – أسبانيا) ، وقد اقترنت هذه النهضة بتطورات خطيرة فى شتى المجالات . وقد كانت إيطاليا نقطة البداية فى الإهتمام الحق بهذه النهضة ، حيث كانت أحوالها الطبيعية ، والاجتماعية ، والسياسية ، وغيرها مساعداً على نمو عوامل النهضة وتقدمها تقدماً سريعاً يفوق كل تقدم فى أى جهة أخرى من أوربا ، حيث كانت المدن الإيطالية فى القرن الخامس عشر مهيأة بطبيعية موقعها ومركزها وسياسة الحكم بها أن تكون مركزاً للنهضة . وقد بدأت هذه النهضة فى فلورنسا ، ثم ازدهرت فى روما ، ووضعت القواعد لمفهوم علم الجمال وصلته بالفنون التشكيلية المختلفة ، وبذلك سار الفن فى محاذاة المثالية التى يبحث عنها الإيطاليون .

وما أن بلغت النهضة الإيطالية قمتها فى القرن السادس عشر «العصر الذهبى لإيطاليا» حتى أخذت تنتشر منها إلى جهات أوربا المختلفة ، حتى عمت غربى أوربا ، وقد كانت فرنسا من أهم الدول الأوربية التى ظهرت بها آثار النهضة الإيطالية على مختلف الفنون التشكيلية بصورة واضحة فى القرن السادس عشر ، وذلك نظراً لطبيعة أحوالها الطبيعية والاجتماعية والسياسية التى ساعدت على سرعة استجابة الشعب الفرنسى للنهضة الإيطالية .

ويعتبر عصر النهضة الإيطالية هو الذى مهد الطريق لبزوغ عصر الباروك بالقرن السابع عشر ، الذى انتشر من إيطاليا إلى دول أوربا الغربية ، واتخذ مظاهراً شتى باختلاف الدول والبلدان والأنظمة السياسية . فاتخذ مظهراً كلاسيكياً فى فرنسا (الباروك الكلاسيكى) وذلك نتيجة لتحالفه مع الحكم المطلق فى عهد لويس الرابع عشر ، وأيضاً لطبيعة التقاليد التى كانت منتشرة فى فرنسا فى القرن السادس عشر ، والتى تعتبر جذور له .